مخطوف

أول قضية «مخطوف» يتحرك أمام القضاء:
هل تنفع الأدلة في معرفة مصير محيي الدين حشيشو؟

حسين أيوب

قبل أيام قليلة، مثلت نجاة حشيشو امام القاضي جوزف سماحة في محكمة صيدا بصفتها صاحبة دعوى ضد مجهول قام بخطف زوجها من منزله في عبرا في شرق صيدا بتاريخ الخامس عشر من ايلول ١٩٨٢، غداة مقتل بشير الجميل.

تحريك القضية امام القضاء بعد ١٧ سنة من الانتظار والالم والعذاب، اعاد الزوجة الى لحظة يصعب عليها ان تمحوها من ذاكرتها وراحت تسردها بتأثر امام القاضي: انا نجاة محمود نقوزي من مواليد الاربعينيات. زوجي استاذ مدرسة ورجل سياسي ورب عائلة متفان. في تمام الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر يوم الخامس عشر من ايلول ١٩٨٢ كنا كعائلة مؤلفة من ستة افراد: محيي الدين وأنا واولادنا اسامة وهدى ومازن ومنى مجتمعين في منزلنا في عبرا. زوجي كان يقرأ كتابا ممنوعا (محنة العقل في الإسلام) ويرتدي «البيجاما» ويضع نظارتين، بينما كنا نحضر التلفزيون انا والاولاد. لاحظنا حركة غير اعتيادية خارج المنزل. قوة عسكرية بامرة (ب. ر.) تضم ٢٠ عنصرا تحاصر بيتنا ومعهم سيارة «بيجو» بيضاء اللون ـ ستايشن وكان يعلو سطحها ضوء اصفر يشبه سيارات الاسعاف. كما حضرت سيارة ثانية «فيات» برتقالية اللون. رنوا الجرس فبادر زوجي الى فتح الباب. سألوه انت محيي الدين حشيشو فاجابهم نعم فردوا: «مطلوب على التحقيق فوق». افهموه ان هذا «امر عسكري غير قابل للنقاش» وسمحوا له بعد اخذ ورد بان يغير ثياب النوم وذكروه بان يحمل بطاقته الحزبية معه اذا كانت موجودة لديه. قائد الفرقة صاحب الشعر الاشقر اللون طلب من احد عناصره اخراج الرصاصة من بيت النار «لانه لم يعد لها اي لزوم» وقال لي: «مدام ما في ضرورة تبكي ولا تعذبي حالك وتتصلي بحدا... القصة تحتاج لنصف ساعة تحقيق مع زوجك ونعيده اليك». وقبل ان يخرجوا من المنزل طلبوا من محيي الدين ان يطمئنني والاولاد المذعورين بعدم الانفعال والبكاء «لانني ساعود اليكم بعد شوي».

لحظة خروجهم من المنزل لاحظوا وقوف بعض الجيران على الشرفات فانذروهم بالدخول وانطلقوا بسياراتهم باتجاه عبرا وتبين ان سيارة عسكرية كانت ترافق السيارتين وعليها شعار احدى الميليشيات وقبل ان يغادروا الحي صرخ احد العناصر بوجه ابني اسامة وطلب منه الدخول فورا الى المنزل.

مضت الـ «شوية نصف ساعة» ولم يعد محيي الدين. تركت اولادي في المنزل وتوجهت الى منزل احد الجيران بالرغم من حظر التجول وتوسلت اليه ان يسمح لي بالاتصال بواسطة هاتفه الموصول بتكنة الجيش في صيدا لأن الهواتف العادية كانت مقطوعة. تكلمت مع «أبو معروف» (مصطفى سعد) ومع المرحوم حسيب (عبد الجواد) ومع آخرين وكان جوابهم انهم حققوا مع آخرين مثل فهد الكردي «وهلق بيرجع زوجك عالبيت».

انتظرت ولم يعد، فغامرت مجددا واتصلت بالمطران ابراهيم الحلو والاب يوحنا الحلو وبآخرين ولكن زوجي لم يعد وجاءني الشاب (ط. ح.) وقال لي: حققوا معي وكان محيي الدين معصوب العينين امامي وبقربه زجاجة دواء يحملها باستمرار ولما سألوني هل تعرفه؟ أجبتهم نعم. انه محيي الدين حشيشو.

معظم الرواية سردتها نجاة امام القاضي في دقائق قليلة وقدمت كل ما تملك من اسماء تحفظت عن ذكرها «عملا بمبدأ سرية المحاكمة ولدقة الموضوع وحساسيته» وخرجت من قاعة المحكمة في قصر العدل في صيدا وكلها امل بأن تمضي في القضية حتى النهاية...

ولد محيي الدين حشيشو في الاسكندرية في العام ١٩٢٧ وتوفي والده نتيجة اصابته بمرض السحايا، فتحول وهو في سن الثالثة الى يتيم آوته ـ مع اخته البكر واخيه الصغير ـ دار الايتام الاسلامية في بيروت وبعد فترة وجيزة عادوا الى مقاصد صيدا (المدرسة الداخلية) واصبح مسؤولا عن شقيقته وشقيقه وتولى رعايتهما (يعيشان حاليا في الولايات المتحدة). تأثر كثيرا بناظره الداخلي في المقاصد وهو الشهيد معروف سعد وأنهى دراسته الثانوية في بيروت (الليسيه) وعينه على صيدا متأثرا بالمناخ القومي المزدهر في نهاية الاربعينيات ومطلع الخمسينيات. سفره الى البحرين مع اخيه في منتصف الخمسينيات لمدة سنتين كرس تحولا كبيرا في حياته ذلك ان مهنة التدريس قربته من الحركة النقابية الناشطة في اوساط العمال والمعلمين وخاصة ان نشأته الاجتماعية الصعبة ولدت لديه همّا انسانيا واجتماعيا فراح يتعرف على الشيوعية والفكر الاشتراكي وانخرط في المقاومة الشعبية الصيداوية في العام ١٩٥٨ بصفته «شيوعيا» على الرغم من ظروف العزلة التي لحقت بالشيوعيين في ايام الوحدة في صيدا وغيرها من المدن اللبنانية المتأثرة بالمد القومي، حتى أن مجرد وجود محيي الدين حشيشو كناظر في مدرسة المقاصد للصبيان (القسم الداخلي نفسه الذي كان يحتله قبله معروف سعد) كان امرا لا تتحمله صيدا «ولكن دماثة هذا الرجل واخلاقياته العالية وحب الطلاب والاهالي له جعله مقبولا وهذا هو السبب الذي أتاح لشخصية محيي الدين ان يؤمن حضورا سياسيا للحزب الشيوعي في صيدا لم يكن معترفا به من قبله ابدا» كما يقول بعض من عاصروا تلك التجربة.

لا عداوات عند محيي الدين ولا نظرة فوقية لأحد ولم يكن يجعل احدا يعرف انه يحمل اكثر من شهادة «ليسانس» والسبب هو شخصيته الخجولة والبسيطة التي لم تكن تحتمل ان يمثل غيرها ابدا بخلاف آخرين كان العمل السياسي يتطلب منهم الظهور على الناس بشخصيات مختلفة. وعلى سبيل المثال: لم يفسد الخلاف السياسي مع قريبه الدكتور نزيه البزري، العلاقة الشخصية بينهما. ويروي اهل المدينة حكاية حليم مليحة (المصري) وهو من قبضايات آل البزري و«فتواتهم»: تسنت لهذا الشاب في يوم من الايام فرصة قول «مرحبا» فقط للمثقف محيي الدين حشيشو الجالس في «قهوة رجال الاربعين» او «قهوة الجامعة» فدعاه الى الطاولة نفسها وعرض عليه تعليمه «الألفباء» بعدما كان جمهور المقهى من الاساتذة والطلاب يعلمون بأمر أميته. بعد شهور قليلة صار حليم يأتي الى «رجال الاربعين» حاملا بيده الجريدة وما زال يردد ان محيي الدين هو بالنسبة إليه في منزله «الدكتور نزيه» وربما اكثر...

آخر صورة لحشيشو مع زوجته وأولاده الاربعة

اغتيال معروف سعد في العام ١٩٧٤ هز محيي الدين كثيرا... بكى مثل الولد، وتألم كثيرا «لأنه كانت تجمعه به صداقة غير عادية وهو كان برفقته في تظاهرة الصيادين يوم استشهاده وظل وفيا لمبادئه وربطته علاقة وطيدة بابنيه مصطفى واسامة سعد والكل يستذكر آخر المواقف الوطنية لمحيي الدين غداة انتخاب بشير الجميل رئيسا للجمهورية.

ففيما حاولت بعض القيادات المحلية التعامل مع الحدث كأمر واقع، انبرى محيي الدين للقول للقاء الوطني الصيداوي: «هذا رجل فاشستي وديكتاتوري ووصل الى القصر الجمهوري على ظهر الدبابات الاسرائيلية ولا يجوز ابدا ان نهادن في المسألة الوطنية». ويقول رواة تلك اللحظة: عندما خطف محيي الدين ربط كثيرون بين الموقف الذي اتخذه وبين خطفه من منزله وربما تصفيته فورا».

تقول زوجته: عندما اقترنا في العام ١٩٦١ لم اكن اعرف اتجاهه السياسي واذكر انني سألته عندما جاء الى منزلنا مرة: هل انت بعثي مثل غالبية اهل المدينة فأجابني ضاحكا: «لا... يا نجاة» ومع الوقت اكتشفت انه من الناشطين في الحزب الشيوعي وكانت همومه واحدة: البلد، المدينة، الحزب، الفقراء اما العائلة فهي في المرتبة الاخيرة ولا زلت اذكر انه بعد زواجنا جاءته منحة للدراسة في جامعة الصداقة في موسكو ولكنه رفضها «لأن مقتضيات العمل الحزبي تفرض علي الا ابارح صيدا نهائيا».

ويشهد رفاق محيي الدين في منظمة الحزب الشيوعي في صيدا انه رفض كل عروض التفرغ الحزبي وترك وظيفة التدريس لانه كان مقتنعا بأن التفرغ «يحوله الى مناضل بيروقراطي ويبعده عن الناس» ويقول رفاقه انه «كان انضباطيا الى أقصى الحدود ودقيقا في تنفيذ المهام المسندة اليه ولا زلنا نتذكر وقفاته في المؤتمرات الثاني والثالث والرابع ولا سيما في العام ١٩٧٢ عندما ألقى مداخلة حول تعزيز العمل الديموقراطي في اوساط المثقفين الجنوبيين متهما البعض في الحزب باتخاذ مواقف شوفينية متزمتة ازاء فئة المثقفين ومعظمها ذات اصول عمالية وفلاحية «واذا لم نعزز عملنا في اوساطها تدفعها الى احضان الاقطاع التقليدي والاستزلام للسلطة ورموزها»، ويردد هؤلاء عنه حرصه على عدم الاصطدام بأهل الناس عدائية تجاه الحزب حتى انه عندما أوقف إبان الدخول السوري لصيدا في العام ١٩٧٦ راح يجادل الضابط المسؤول عن التوقيف ايمانا منه بأنه بمقدوره ان يقنعه بوجهة نظره «الصحيحة مئة في المئة» كما كان واثقا من ذلك دوما...

خلال الاجتياح الاسرائيلي في العام ١٩٨٢، هربت معظم قيادات صيدا الفلسطينية واللبنانية باستثناء قلة بينها محيي الدين بالرغم من الاحباط الذي أصابه بفعل الارتباك الذي لحق بالوضع الوطني برمته. نصحته زوجته بالسفر فرفض وقال له الاصدقاء: «كل قيادات الحزب غادرت صيدا ما عداك» فلم يعلق واستدعي الى تجمعات الرجال على شاطئ البحر ومر من امام الملثمين وكان البعض يقول: غريب كيف لم يجد من يشي به من العملاء الصغار! لكن لم تمض اسابيع قليلة الا واختفى محيي الدين حشيشو تاركا زوجة واولادا اربعة هم: اسامة وهدى ومازن ومنى. هاجس الخطف لاحق الأم: كنت عندما اسمع صفير الهواء خارج المنزل ارمي نفسي على اولادي واحتضنهم كالعصفورة خوفا من ان يسرقهم احد مني. الاصدقاء ابتعدوا عنا ورفاق محيي الدين وضعوه في لائحة المخطوفين واهملونا وانا اصبت بمرض الأرق. قلق على المخطوف وقلق على الاولاد والحاضر والمستقبل ومنذ ١٧ سنة لا انام الا بفضل الادوية. كان همي الاساسي كيف اربي اولادي ليكونوا مثلما كان يتمنى لهم والدهم ان يكونوا وها هم جميعا اليوم قد أنهوا دراستهم الجامعية وكبيرهم اسامة تخصص في الطب ويعيش في المانيا وشقيقته الصغرى (منى) لحقت به لإنجاز الدكتوراه اما هدى فقد تخصصت في الطب وتزوجت وتقيم في اميركا وكذلك شقيقها الاصغر مازن وانا الآن اجلس يوميا قرب الهاتف لأسمع صوتهم وهم دائما يسألونني: «في جديد بقصة البابا يا ماما». تصوروا أنهم في المدرسة صرفوه من العمل «بسبب الانقطاع عن العمل» بعد سنة من اختطافه وبعد سنوات اعطوني تعويضه (٥٠٠ دولار اميركي!). رفضت الحصول على قرش واحد من الحزب الشيوعي وقلت لهم: «ما أريده منكم أن لا تنسوا محيي الدين ولكنهم للأسف نسوه وتناسوه كليا (تنهمر دمعتها)».

يلمع المحبس الذهبي في يدها اليسرى وتحمل صورة زوجها الاخيرة معها ومع اولادهما وتتأملها مطولا وتقول: «جربت نزع المحبس من يدي لكنني شعرت بانزعاج هائل... لم اتقبل الفكرة.. شعرت انني ارتاح مع المحبس اكثر... ربما أشعر بتواصل مع محيي الدين...». نظارات محيي الدين لا تزال في مكانها وكذلك معظم اوراقه وكتبه وثيابه وساعته وحتى السيارة التي اشتراها قبل فترة من اختطافه («داتسون» موديل ١٩٧٧) لا تزال متوقفة امام المنزل بانتظار عودة صاحبها.

تقول نجاة: لا يمر يوم الا واتذكر محيي الدين، اتذكره لأنه كان صادقا ومحبا وطيبا واتذكره لأن المسؤوليات التي ألقيت على عاتقي كبيرة جدا ولولا اختفائه لما تحملت صنوف القهر والعذاب طيلة ١٧ سنة خاصة وان احدا لم يقف بجانبي نهائيا»، وتضيف: انا آخذ حبوبا منومة ولذلك اصبحت الاحلام بعيدة جدا عني واذا مرت في يوم من الايام فإنها غالبا اما تكون سوداوية. لا أدري لماذا هذه القضية تخيف الجميع. لا احد يتجاوب معنا وبعضهم يقول انسوا امرهم لقد تمت تصفيتهم وانا اقول حتى لو قتل محيي الدين اريد ان اعرف اين دفن واريد ان اقيم مأتما له وان ازور قبره باستمرار وان اضع وردة وان اقول لأولادي عودوا يوما ما الى وطنكم لأن فيه ما يذكركم بوالدكم...

١٧ سنة من الانتظار لم تحول نجاة الى يائسة ابدا. بالامس كانت تقف مع الاهالي المعتصمين في ساحة النجمة والمتحف وها هي تحمل دفتر التبرعات لدعم حملة «من حقنا ان نعرف» وها هي اول قضية مخطوف تسلك طريقها الى القضاء بكل الأدلة الموثقة بأسماء الخاطفين وهوياتهم وسياراتهم والطريق التي سلكوها والشهود الذين اكدوا وجود زوجها بعد اختطافه.

بالامس تحديدا استقبلت نجاة في منزلها محققين امنيين طلبوا منها تقديم كل ما تملك من معلومات في اطار عملية تقصي الحقائق الجارية حول مصير ١٧ ألف مخطوف ومفقود واخرجت من ذاكرتها كل مخزون عذابها وحقدها على الخاطفين وأولئك الذين لا يحبون ابدا ان يسمعوا اسم محيي الدين حشيشو يتردد...

السيرة الرمضانية لعائلة بيروتية

عن آل رمضان أو الصوم في منازل كثيرة

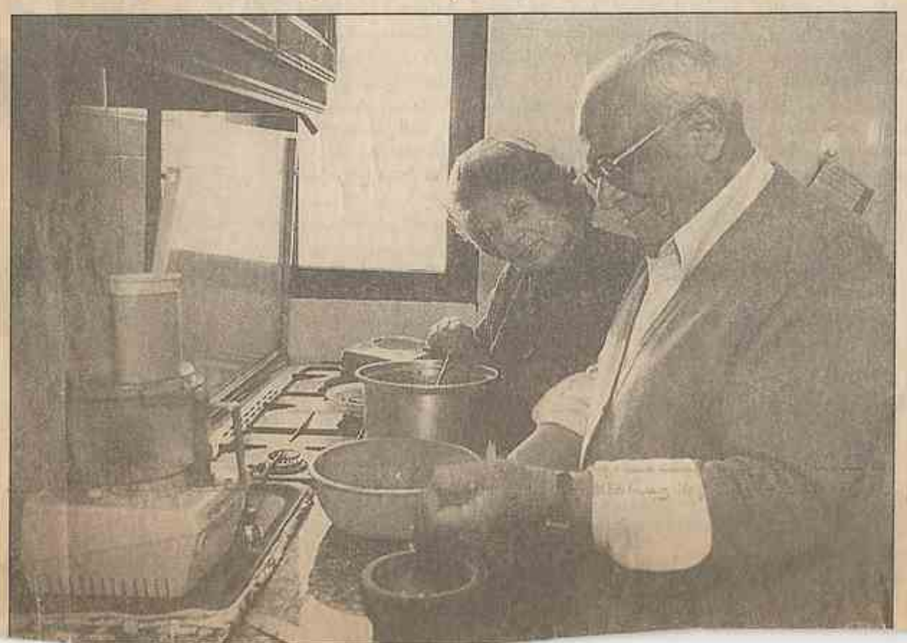

بين المنزل الاسري في المدينة القديمة في حي زقاق البلاط والمنزل المديني التالي في منطقة الصنوبرة في بيروت الحرب وبعدها، ثم «الاستقرار» في منطقة عرمون السكنية التي لا تشبه المدن الا بتعداد سكانها، تبدو رحلة اميمة ومنير رمضان تقدما في زمن يتراجع. وهم اذ يتنقلون من منزل الى آخر نتخيلهم اشبه بعصافير تبحث عن مواضع لقوائمها بديلا عن كابلات الكهرباء التي تقطعت في قصف عشوائي ما.

هكذا نتخيلهم يتقدمون في هذا التيار المتراجع وقد تأبطوا اشياء وعادات يحاولون انقاذها دون الكثير من التشدد. اما لماذا دون الكثير من التشدد؟ فلأنها صفة المدنيين الاولى الذين يتعلمون الانصياع لرغبة المجموعة الكبيرة ولو على مضض.

هكذا، يقول منير (٦٥ عاما) تعليقا على سؤال له عن مدى افتقاده لتقفة طقوس رمضان في بيروت بعد انتقاله لهذه المنطقة السكنية المتشابهة المباني والخالية من أي سوق انه «لا شيء يصعب على الانسان، وانه ـ اي الانسان ـ سريعا ما يتأقلم». يقولها وقد شابت